الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن استنَّ بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين. أما بعد:

قَالَ المُصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابُ فضل التوحيد وما يُكفر من الذنوب

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام].

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**». أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يَا رَبِّ؛ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا!، قَالَ: يَا مُوسَى؛ لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ - غَيْرِي - وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». رَوَاهُ ٱبْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ - وَحَسَّنَهُ - عَنْ أَنَسٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ٱبْنَ آدَمَ؛ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**».

قال الشارح وفقه الله:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (بابٌ) أو باب فضل التوحيد، إما باب على الابتداء، ويكون بابٌ مبتدأ و(فضل) خبر، أو يكون بالإضافة (بابُ فضل)، يكون (بابُ) مُبتدأ وهو مضاف و(فضل) مُضاف إليه.

ونلاحظ أنه فيما سبق لم يذكر تبويبًا، وكأنه جعلَ ذلك مُقدمة وهذا هو الباب الأول، وعلى فرض أن الإمام أراد هذا فتكون عدة أبواب (كتاب التوحيد) ثلاثة وستين بابًا، وإذا جوَّزنا ما قاله بعض أهل

العلم من أن ما تقدم كان باب، فيكون هذا هو الباب الثاني وتكون العدة أربعةً وستين بابًا.

قال: (بابُ فضل التوحيد)؛ أي باب بيان فضل ومنزلة ومكانة التوحيد، والتوحيد له أعلى منزلة ومكانة، لأنه حق الله، وحق الله يعلو على كل حق، ولذلك كان هو مُخالفه وضدُّه هو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله، كما في الحديث أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»، وفي الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:١١٦].

وقوله: (وما يُكفِّر من الذنوب) أي أن التوحيد يُكفر الذنوب، و(مِن) بيانية وليست تبعيضية، فإن التوحيد كما في حديث عمرو بن العاص الإسلام يجُب ما قبله، وفي كتاب الله كما في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]، فالتوحيد يُكفر الذنوب جميعًا إذا ما تحقق بعد ذنوب وإن كانت كبيرةً وكثيرة، فإن التوحيد يمحوها جميعًا، وما كان من حقوق العباد، وحصل بعده التوحيد، فإن الله يتحمله على العبد، ويعفو عنه، ويُرضي صاحب ذلك الحق بأنه وعد أنْ يُكفر جميع ذنوب من أتى بحق الله عز وجل.

فقوله رحمه الله تعالى: (وما يُكفر من الذنوب) ثم أورد قول الله عز وجل في الآية من سورة الأنعام مُبينًا فضل التوحيد ومكانته، وأنه يُكفر جميع الذنوب: (﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]) الذين آمنوا أي حققوا التوحيد وليس معناه: شهدوا بألسنتهم دون أن يُحققوا التوحيد، بل ولا صدَّقوا بقلوبهم دون أن يُحققوا التوحيد، فمعنى الإيمان هنا: أنهم أتوا بأركان الإيمان الثلاثة التي هي أساس التوحيد، وهي تصديق القلب، ونُطق اللسان، وعمل الجوارح، فهذا هو التوحيد، إذا تحقق الإنسان التوحيد بهذه الأركان الثلاث صار من أولئك الذين استحقوا هذا الوعد بشرط أنهم لم يلبسوا أي لم يخلطوا إيمانهم بظلمٍ أي بشركٍ، لأن الشرك هو الظلم، كما في قوله عز وجل في وصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] ، فلما نزلت هذه

الآية هرع الصحابة وجلين خائفين إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قالوا: يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال لهم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ليس الظلم الذي تذهبون إليه» يعني ليس هذا هو الظلم المعهود لغةً، وإنما الظلم هنا معناه الشرك، ثم قرأ عليهم آية لقمان.

وقوله: (﴿أُوْلَئِكَ﴾ [الأنعام:٨٢]) نص العلماء على أنها تُفيد هنا معنيان:

المعنى الأول: علو مكانتهم وبُعدهم عن غيرهم، ولذلك أشار إليهم باسم الإشارة للبعيد: (﴿أُوْلَئِكَ﴾ [الأنعام:٨٢]).

والمعنى الثاني: نُدرتهم وقلتهم بين البشرية، فلما كانوا قلة في عددهم أُشير إليهم باسم الإشارة للبعيد كأنهم كوكبٌ غاربٌ لا يُرى، استحق أن يُشار إليه باسم الإشارة للبعيد: (﴿أُوْلَئِكَ﴾ [الأنعام:٨٢]) أي كأنه يقول: أولئك الذين هناك الأُفق لا ترونهم، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] أي موحدين.

وقال جل وعلا: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، أي أنهم يؤمنون بالله، لكنهم مع ذلك يُشركون به، لكنْ قليلٌ هم الذين يُفردونه بالعبادة كما قال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، أي الموحدون له سبحانه، فإن الشرك حقيقته التوحيد، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦].

قال: (﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]) أي أمان من المخاوف وطمأنينةٌ في النفس، وذلك يوم القيامة، بل حتى في الدنيا هم آمنون من الروع والخوف، ولكن المقصود أمن الآخرة الذي سماه الله عز وجل يوم الفزع الأكبر، فهُم في ذلك اليوم عاملون مُطمئنون.

قال: (﴿مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]) أي في الدنيا مهتدون إلى كل ما يُحبه الله ويرضاه تميل إليه نفوسهم، وتصبوا إليه قلوبهم، وتسير إليه أقدامهم، وهم في الآخرة مهتدون إلى طريق الجنة.

ثم قال رحمه الله تعالى موردًا حديث عبادة بن الصامت المُخرج في «الصحيحين» وعبادة بن

الصامت بدريٌ وأحد النقباء من الخزرج من الأنصار، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («مَنْ شَهِدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»).

فقوله: («مَنْ شَهِدَ») مَن موصولة بمعنى (الذي) («شَهِدَ») أي بعلمٍ كما قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، شهد عن علمٍ وعن دراية، وعن يقينٍ وصدقٍ وحقق هذه الشهادة بعملِهِ، ومعنى: (شهد) أي نطق بالشهادة بلسانه، واطمأن بها قلبه، وقامتْ عليها بالعمل جوارحه، («شَهِدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ») أي شهد أنه لا يستحق أن يُعبد أحدٌ أو شيءٌ إلا الله جل في عُلاه، فهو شهد في ذلك بقلبه ونطق بلسانه، وحقق بعمله.

(«وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ») أي ليس شريكًا له ولا ندًا له، فلا يجوز رفعه إلى مقام الإلهية، ولا يجوز ادعاء أن محمدًا يقدر على عملٍ ما لا يقدر عليه إلا الله.

(«وَرَسُولُهُ») أي مع كونه عبدٌ لله فهو ليس كسائر العبيد، بل هو رسول الله عز وجل، بل هو أفضل الرسل، لأن جميع الرسل أُرسلوا إلى أممهم كل نبي أُرسل إلى قومِهِ، إلا أنا أُرسلت إلى الأحمر والأسود كما قال في الحديث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهو يؤمن بأنه بشر، وأنه عبدٌ لله، ليس شريكًا معه، ومع ذلك يؤمن بأنه مرسلٌ من ربه، فله حقوقٌ أعظم من حقوق الآخرين، وفي هذا بيان أن التوحيد لا يتحقق إلا بالإيمان بهاتين الكلمتين: شهادة أن لا إله إلا الله وذلك بالاعتقاد وإفراد الله بالعبادة، وباتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع عملِهِ، فلا يُخالفه في شيء، فيما يتقرب به إلى الله، ومن جاء بهذا القدر من الشهادة كفاه، أما إن كان نصرانيًا لزمه أن يأتي بباقي الكلمة وهي أن عيسى عبد الله ورسوله، لأنه كان قبلَ إسلامِهِ أو قبل إرادته الدخول في الإسلام يعتقد أن عيسى هو ابن الله، وأنه ثالث ثلاثة، فلزم أنْ ينفي ذلك عن نفسه، فغير النصراني يدخل في الإسلام بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، والنصراني يزيد على

ذلك بأن يشهد أن عيسى عبد الله أي ليس شريكًا ولا ابنًا بل هو عبدٌ لله عز وجل.

(وَرَسُولُهُ) فهو مُرسلٌ من ربه، وهو من أولي العزم من الرسل وهم خمسة:

نوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمد، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجمعين.

قال: (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ)، وفي هذا بيان أنه ليس من أبٍ فلم يُعاشر مريم رجلٌ، بل حبلت بأمر الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم، فإن الله أمر جبريل أن ينفخ في أعلى ثوب مريم، فصارت تلك النفخة حتى استقرت في الرحم فكان منها عيسى بن مريم الذي أنطقه الله وهو في المهد صبيًا، وأخبر وهو في المهد أنه رسولٌ مرسلٌ من ربه، فمن شهد بهذا من النصارى صح إسلامه وإيمانه، وذهب بعض أهل العلم إلى أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله كافية لكل أحدٍ يريد الدخول في الإسلام، ولو كان نصرانيًا، ولكنْ الأكمل للنصراني أن يأتي بالشهادة على هذا الوجه.

ثم قال: (وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ)، وهذا في حق الدهريين الذين يظنون ويعتقدون أنه لا خالق، ولا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا جنة ولا نار، فهؤلاء لا يكون إيمانهم حتى يُصرحوا بالجنة والنار، وأنهما حقٌ، كما جاء في الحديث بأنهم كانوا ينفون ذلك قبل إرادتهم الدخول في الإسلام، وكانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

(«أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ») من أتى بهذه أدخله الله الجنة: («عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ») يعني إذا مات على ذلك أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، يعني أنه بإتيانه بهذا فإنه يعفو الله عز وجل عنه، لأن الموحِّد لابد أن يدخل الجنة، لأن الجنة إنما حُرمت على المشرك فقط، وليس على المُقصر من الموحدين، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على لسان عيسى بن مريم أنه قال لقومه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢] .

فقال: («أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»). أي من الذنوب والتقصير، لأن كل ما دون الشرك هو تحت مشيئة الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ثم أخرجه إلى الجنة، والأدلة على ذلك كثيرة جدًا.

ثم قال رحمه الله تعالى: (وَلَهُمَا) أي للبخاري ومسلم (فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ) وهو عتبان بن مالك الأنصاري رحمه الله تعالى ورضي عنه قال: («فَإِنَّ اللهَ») فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: («فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ») أي قالها بلسانه معتقدًا بقلبه عاملًا بجوارحه بمقتضى هذه الكلمة، فإن الله حرَم على النار، كما حرم الجنة على المشرك حرَّم على النار المؤمن أن يخلد فيها التحريم هنا تحريم خلود لا تحريم دخول، التحريم على النار تحريم خلودي أي لا يخلد في النار، وإنما يدخل بقدر ذنبه إذا شاء الله، وإذا شاء غفر له، وأدخله الجنة دون أن يدخل النار.

وفي هذا دلالةٌ على فضل التوحيد، وأنه يوجب لمن مات على التوحيد النجاة من النار، ولو كان مُذنبًا مُقصرًا.

ثم أورد حديث أبي سعيد الخدري: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ؛ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ») أي لا يعرف أحدٌ غيري خُصني به حتى أُثني عليك به وأدعوك به.

قال: («قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: يا رب كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا») يعني هذا ليس خاص بي أنا، فقال الله عز وجل له: («يَا مُوسَى؛ لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ - غَيْرِي -») العَامر: أن من يعيش ويحيى فيها من ملائكة وغيرهم ممن خلق الله ويعلم سبحانه، («وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ») وهذا فيه دلالة أن السماوات سبع طبقات، ولكل طبقة عُمارها والأرضين سبع طبقات، والأرضين أيضًا سبع طبقات. («فِي كِفَّةٍ») أي من كفتي الميزان، الميزان له كفتان جانبان ولسان، فلو وُضعت السماوات السبع والأرضين السبع ومن فيهنْ من خلق الله في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى مالت بهن أي كانت أثقل من كل ذلك الخلق، لأنها الشهادة الوحدانية لله، وهي التي خلق لأجلها الله السماوات والأرض ومن فيها، وأرسل الرسل وأنزل الكتب وعليها قامت الخصومة بين الأنبياء وأُممهم، وعليها تقوم سوق الجنة والنار.

قال: («مَالَتْ بِهِنَّ») أي ثقُلت في الوزن عن هذه المخلوقات العظيمة كلها، وفي هذا بيان فضل لا إله إلا الله.

ثم أورد حديث أنس في التقريب قال: (وَلِلتِّرْمِذِيِّ – وَحَسَّنَهُ – عَنْ أَنَسٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ؛ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»).

وهذا فيه أن التوحيد يُكفر جميع الذنوب بشرط أن يموت ليس في قلبه شكٌ في الله ولا شركٌ في العمل، لا شركٌ في اعتقاده، ولا شركٌ في عمله، لهذا قال: («لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ») وفي رواية: «بملء الأرض» والمعنى واحد: القُراب أي تقريبًا مثل حجم الأرض وما فيها.

قال: («ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا») يعني أن هذا يكفر الذنوب، وهذا فيه فضل التوحيد وبيان تكفيره الذنوب، فنسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا وإياكم موحدين، وأن يُبعدنا عن الشرك والمشركين.

والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.